ظاهرة اللهو والترف في الشعر الأندلسي وتأثرها بالبيئة الأندلسية

أ. فاطمة عبدالسلام خليفة
قسم اللغة العربية– كلية الآداب
جامعة صبراته

مقدمة:

اتخذ الشاعر الأندلسي من البيئة الاجتماعية منطلقاً لكثير من أغراض شـــعره، فعنـــدما يمدح أو يهجو أو يزهد أو ينطق بالحكمة فهو يعبر عن ظواهر اجتماعية يجب أنْ نقف عنـــدها ونتعرَّف عليها، فالأدب يتأثر بالبيئة الاجتماعية، والأديب يعيش في مجتمعه فيتأثر به ويؤثر فيه، وهو ينشئ أدبه لهذا المجتمع، ومن هنا كان اختلاف الأدب باختلاف الظواهر الاجتماعية التـــي يمرُّ بها المجتمع، وينشأ خلالها الشاعر، فالكشف عن بيئة المجتمعات الأندلســـية فـــي مختلـــف

مراحل تطورها، أمر شاق ودقيق ؛ لأنَّ المناخ الاجتماعي الذي عاش الأدب الأندلسي في ظلـــه ثمانية قرون كان من أغنى المناخات وأكثرها تنوعاً وتعقيداً في التاريخ العربي القديم.[1]

ومن خلال استقراء الحياة الاجتماعية للأندلسيين، حاول بعض الباحثين تحديـــد بعـــض الظواهر والمميزات الاجتماعية، ملتمسين لها الأسباب والعلـــل، فكـــان ممّـــا لاحظـــوه علـــى الأندلسيين: الأناقة، والنظافة، والتجمّل، وكرم النفس، والترفع عن المذَّلة، والتخُّلـــق بـــالمروءة، والإقبال على الغريب، وكل ذلك يلقاه الوافد على بلادهم، بادئاً بجزيرة طريف أو متوغلاً فـــي شبه جزيرتهم، ممّا جعل الأندلس أشبه بمعهد للأدب والسلوك والذوق الحســـن، وترجـــع هـــذه الظواهر إلى طبيعة بيئتهم الجميلة، وإلى الدين الإسلامي الذي يحث على النظافة التي هي فرض من فروضه. [2]

كما امتزجت بعض الظواهر الاجتماعية للأندلســـيين بالفكاهـــة والطـــرف، والهجـــاء الاجتماعي القريب من الفكاهة [3]، في الوقت نفسه الذي تدخَّل فيه عُنف المزاج مع الترف، ممّا هيأ لاحتدام التعصب الديني بينهم؛ كردّ فعل للانغماس في الترف والمتاع الحضاري.[4]

ولذلك كانت الأندلس بلد الظواهر الاجتماعية المتناقضة التي كانت سبباً فـــي ازدهـــار الشعر، فالنشاط الأدبي كان يستند إلى ظاهرة اجتماعية أخرى شاعت في المجتمـــع الأندلســـي، ودفعت بالحركة الأدبية إلى الأمام تمثلت في شيوع حياة الترف في المجتمع الأندلسي، وانتشار مجالس الطرب واللهو، وشرب الخمر، والعلاقات الغرامية بين الجنسين، وكثيراً ما كانت تُقـــام مجالس الأنس التي لا يُقصد بها غير تمضية أوقات الفراغ، والترويح عن النفس، ثُمَّ يأتي الشعر فيقوم بدور عظيم في إمتاع النفس، وإدخال السرور على المتسامرين، والشـــعراء – عندئـــذ – يستلهمون معاني الغزل وصفات الخمر والطبيعة، وقد تحتم عليهم المناسبات الطارئة المفاجئـــة إنشاء الشعر على البديهة[5]، وكل ذلك أدى إلى تطور نمط الحياة الاجتماعية، فانعكست مفاتنها

على أحاسيس المجتمع الأندلسي، فتغنوا بها أشعاراً في مختلف المناسبات[6]، وبمختلف الأغراض، ومنها على سبيل المثال، الوصف:

وهو غرض يتناسب مع الحياة العامة داخل المجتمع الأندلسي وماكانت تحفل به هذه الحياة من ظواهر اجتماعية، فتفنن الشعراء في وصف مجالس الطرب والغناء وكؤوس الخمر والبساتين وغير ذلك ممَّا تأثرت به أشعارهم في وصف بيئتهم الأندلسية.

ومن خلال ذلك نلاحظ أنَّ الشعر قد كيَّف نفسه بما يلائم تلك الظواهر الاجتماعية والظروف الجديدة التي أحاطت به، ومن هنا طرأت تحولات اجتماعية على بلاد الأندلس كانت سبباً في انتشار هذه الظواهر ولَّعل من أشهر هذه الظواهر التي وصفها [7] شعراء الأندلس في بعض أشعارهم:-

1- ألوان الطعام:

يرتبط بالبيئة الأندلسية وصف الشعراء لأ نواع الفاكهة، فالأندلس غنية بها، وقد أقبل عليها الشعراء يصفونها ويتحدثون عنها وهم يجولون في بساتين بلادهم وحدائقها ويعقدون أكثر مجالس أُنسهم وطربهم فلم يفتهم أُنْ يصوروا ثمارها وفاكهتها الحلوة التي تطل عليها من فوق أشجارها بشتى ألوانها وأشكالها وروائحها الطيبة، وقد وصف شعراء الأندلس هذه الفواكه متأثرين ببيئاتهم الجميلة ومن ذلك قول ابن زيدون في وصف العنب ؛ حيث نراه يصور نوعًا من العنب اسمه((أطراف العذارى)) أهداه إلى جدّه.

أتاكَ مُحيّياً عني اعتبارا ... عَذارَى دُونَه ريقُ العَذَارَى

تَخَالُ الشَّهَّدُ منهُ مستَمدًا ... ونفحَ المسكْ مِنْهُ مسْتَعارا

يروقُ العينَ مِنهُ جَسْمُ ماءٍ ... غدا توبُ الْهواءِ لهُ شِعَارا. [8]

أمَّا ابن خفاجة فإنَّ وصفه للعنب جاء في إطار المدح والغزل مقروناً بوصف الحمام والرمان.

فقد استطعم أحد القضاة ذات يوم فرخاً من الحمام والعنب، وكان بينهما مداعبات شعرية، فكتب إليه يستدعيه، ويصف موضعاً مشرفاً جديداً، فقال بعد أنْ مدح شعر القاضي، ووصف مجلس الأنس الذي أعده من أجله:

وَعِنْدِي لِمِثْلِكَ مِنْ خَاطِبٍ ... بَنَاتُ الْحَمَامِ وَأُمُّ الْمُدَامِ

بَنَاتٌ تَنَافَسَ فِيهَا الْمُلُوكُ ... وَتَلْهُو الْعَذَارَى بِهَا فِي الْخِيَامِ

فَقَدْ كِدْنَ يَلْقَطْنَ حَبَّ الْقُلُوبِ ... وَيَشْرَبْنَ مَاءَ عُيُونِ الكِرَامِ

وَصَفْرَاءُ طَلَّقْتُ بِنْتاً لَهَا ... وَمَا لِلْكِرَامِ وَمَأْتَى الْحَرَامِ [9]

وهي أبيات طريفة تصور القاضي وقد خطب من ابن خفاجة بنات الحمام، وهي فراخه الصغار، وأم المدام التي كني بها عن العنب، ثُمَّ يصف فراخ الحمام والعنب، فيصور بنات الحمام، وقد تنافس الملوك عليها، ولهت بها العذارى في خيامها، وهذه الفراخ بدل أنْ يلتقطن الحب، يلتقطن حب القلوب، تعبيراً عن ميل القلوب إليها، ويشربن بدل الماء ماء عيون الكرام، ليميل العيون إلى التمتع بمنظرها، وأما العنب فقد أطلق عليهاابنته، وهي الخمر، وواضح من هذا البيت أنَّه كان قد أقلع عن الشراب، بعد أنْ تقدمت به السن، فرضي بالأم بديلاً عن ابنتها، أي رضي بالعنب بدلاً من الخمر، وهو من الكنايات الرائعة.

ولقد أكثر الأندلسيون من وصف العنب، وتفننوا في تعليل لونه الأسود[10]، وها هو ابن خفاجة يصوره في بيتين من مقطوعة أخرى، حيث يقول:

وَأَسْوَدَ مَعْسُولِ الْمُجَاجِ لَوانَّهُ ... لَمَى شَفَةٍ لَمْ أَرْوَ يَوْماً مِنَ الْقُبْلِ

حَكَى لِيْلَةَ الْهَجْرِ اسْوِدَاداً وإِنَّهُ ... لأَشْهَى وَأَنْدَى مِنْ جَنَى لَيْلَةِ الْوَصْلِ [11]

فهو عنب أسود اللون، مجاجه كالعسل حلاوة وطعماً، ويصوره بلمى الشفاه، بل يفضله عليه، فهو لذلك لم يَرْوَ من القبل، كما يعقد موازنة بين لونه وطعمه، فلونه يحكي لون ليلة الهجر في سوادها، أمّا طعمه فأشهى من جني ليلة الوصل، وهو يقابل هنا بين ليلـــة الهجـــر، وليلـــة الوصل، فيزيد الصورة جمالاً ورونقاً.

ومن ذلك أيضا قول الشاعر:– أحمد بن الشقاق، الذي وصفه قائلاً.

عِنَبُ تطلّعَ مْـن حَشَـى وَرقِ لنـا　　　صُـبغت غلائـل جِلّـده بـالإ ثْمـدِ
فكأنّـهُ مِـن بيّـنهِنَ كَواكـبٌ　　　كُسِفْت فَلاحَت فـي سَـمَاءِ زبرجـدِ [12]

ويصف ابن خفاجة ثمر التين أثناء الجني، فيقول:

أَمَـا وَاهْتِصَـارِ غُصُـونِ الْـبَلَسْ　　　وَقَـدْ قَلَّـصَ الصُّـبْحُ ذَيْـلَ الْغَلَـسْ
وَمَـالَ يَسِـيلُ جَنَـى شَـهْدِهِ　　　كمَـا سَـالَ رِيـقُ حَبِيـبٍ نَعَـسْ
لَقَـدْ سَـاقَ مِـنْ رَائِـقِ الْمُجْتَلَـى　　　شَـهِيَّ الْجَنَّـى مُسْـتَطَابَ الـنَّفَسْ
فَهِمْـتُ لَـهُ بِبَيَـاضِ الثُّغُـورِ　　　وَأَحْبَبْـتُ فِيـهِ سَـوَادَ اللَّعَـسْ [13]

فهو في الأبيات السابقة، يعجب بمنظر جني ثمار التين في الصباح البـاكر، فيصـور اهتصار الغصون، يسيل منها جنى الشهد، وإنْ كان لم يوفق بتشبيه شهد التين بريق الحبيب الذي يسيل من فمه وهو نائم، ولكن يبدو أنَّ القافية ألجأته إلى كلمة "نعس" التي أفسدت التشبيه، وقلبت المعنى، ثُمَّ يصور حسن منظره، وطعمه الشهي، ورائحته الطيبة، ممّا جعله يهـيم مـن أجلـه ببياض الثغور، ويحب فيه سواد اللعس، ويصور التين في قطعة أخرى، فيقول:

وَسُـودِ الْوُجُـوهِ كَلَـوْنِ الصُّـدُودْ　　　تَبَسَّـمْنَ تَحْـتَ عُبُـوسِ الْغَـبَشْ
إِذَا مَـا تَجلَّـى بَيَـاضُ الضُّـحَى　　　تطَلَّعْـنَ فِـي وَجْهِـهِ كَـالنَّمَشْ

كَـــأَنِّي أُقَطِّـــفُ مِنْهَـــا ضُـــحىً ثُـــدِيَّ صِـــغَارِ بَنَـــاتِ الْحَـــبَشْ[14]

فهو يصور حبات التين بلون الصدود، والصدود أمر معنوي، ولكن ابن خفاجة يجسده، ويجعل له لوناً أسود، لما يصاحبه من ألم نفسي، ويصور ما فيها من شقوق بالفم المتبسم تحت عبوس الغبش، قبل أن ينْبلج الصباح، فإذا ما تجلى بياض الضحى طلعت في وجهه كالنمش، وهي: البقع على جلد الوجه تخالف لونه، ويكون غالباً في الشُّقْر.

وجاء وصفه لثمر النارنج وتشبيهها بأقداح الخمر، وشبه الغصون التي تحمل الثمر وتهتز به السكارى ؛ لأنَّها تشرب الخمر من كؤوس الثمر، فقال في هذه الصورة الأخيرة:

فَتِلْـــــك أَفْنَانُهَـــــا نَشَـــــاوَى تَشْـــــرَبُ أَكْوَابَهَـــــا قِيَامَـــــا[15]

وهي صورة مستمدَّة من جو الخمر حيث النشوة والكؤوس، أمَّا النارنج فقد صوّر ثمره في أغصانه، فقال:

وَمَحْمُولَـــةٍ فَـــوْقَ الْمَنَاكِـــب عِـــزَّةً لَهَا نَسَبٌ فِـــي رَوْضَـــةِ الْحَـــزْنِ مُعْـــرِقُ

رَأَيْتُ بِمَرْآهَـــا الْمُنَـــى كَيْـــفَ تَلْتَقِـــي وَشَـــمْلَ رِيَـــاحِ الطِّيـــبِ وهـــي تَفَـــرَّقُ

يُضَاحِكُهَا ثَغْرٌ مِنَ الشَّـــمْسِ وَاضِـــحٌ وَيَلْحَظُهَـــا طَـــرْفٌ مِـــنَ الْمَـــاءِ أَزْرَقُ

وَتُجْلَى بِهَـــا لِلْمَـــاءِ وَالنَّـــارِ صُـــورَةٌ تَرُوقُ, فَطَرْفِي حَيْـــثُ يَغْـــرقُ يُحْـــرَقُ[16]

فهي عزيزة ذات نسب في الرياض، تُحمل فوق مناكب الأغصان، وتسر الناظرين إليها، وتلتقي عندها الأماني، وتتفرق عنها الروائح العطرة الطيبة، وتحتفل بها الشمس فتضاحكها، كما يهتم بها الماء فيلحظها بطرفه الأزرق، وهي تمثل صورة اجتماع الماء والنار، فهي حمراء اللون ندية الأوراق، وهي صورة رائعة تسحر الطرف، فيغرق فيها ويحترق، وطريفة تمتلئ بالتشخيص، حيث شخص الثمرة، والأغصان، والمنى، والرياح، والشمس، والماء، ليرسم لوحة

فنية بديعة، استمدَّ عناصرها من الطبيعة الجميلة من حوله، ومزجها بأحاسيسه المرهفة، فجاءت على هذا النحو من الطرافة والخيال.

ووصفه " عبدالله بن سارة الشنتريني " مازجاً وصفه له بوصفه لفتاته حين اختار أجزاء صوره من مفاتنها ومحاسنها في قوله:

أَجَمْرٌة على الأغْصَانِ زَادتْ نَضَارةً ... بـــه، أُم خُـــدود أَبْرَزَتّهَـــا الْهَـــوَادجُ

أرى شجر النارنجِ أَبْدَى لَنـــاَ جَنَـــىً ... كَقَطْـــرِ دُمُـــوعٍ ضَـــرَّجَتُهاَ اللَّـــوَاعجُ

2- وصف الأشخاص والأحوال:

لقد بدأت مجالس الأنس كظاهرة اجتماعية انتشرت في الأندلس ثمَّ أخذت هذه الظـــاهرة في الشيوع والإنتشار وشارك فيها الخاصة والعامة على الســـواء ووصـــف شـــعراء الأنـــدلس الأشخاص والأحوال فوصفوا الساقي والنديم والمغني والسابح والأحدب وصـــفاً تمتـــزج فيـــه عناصر البيئة من الطبيعة والشراب وأدواته.

ومن الصور التي تقف عن حدِّ وصف الساقي الذي هو زينة مجالس الشراب ولذا ينبغي أَنْ يكون مختارًا من أَجمل الشبان والشابات وأرقهم، ليكتمل الجمال واللهو الذي يطلبونه أثنـــاء شربهم، وكثيراً ما كان يتجه إليهم الشاربون بمشاعرهم، مأخوذين بمناقبهم، ومواطن الفتنة فيهم: جمالاً ورشاقة جسم وحركة ورقّة، مع مناسبة مظهرهم لوهج الخمر[18].

أمّا ساقي ابن خفاجة فهو غلام أحور، يقول في وصفه من شعره الذي قاله في صباه:

إِنَّمَـــا الْعَـــيْشُ مُـــدامٌ أَحْمَـــرُ ... قَـــامَ يسْـــقِيهِ غُـــلاَمٌ أَحْـــوَرُ

وَعَلَـــى الأَقْـــدَاحِ وَالأَدْوَاحِ مِـــنْ ... حَبَـــبٍ وَنُـــورٍ تبـــرٍ أَصْـــفَرُ

فَكَـــأَنَّ الـــدَّوْحَ كَـــأْسٌ أَزْبَـــدَتْ ... وَكَـــأَنَّ الْكَـــأْسَ دَوْحٌ مُزْهِـــرُ[19]

والأبيات السابقة تمثل مذهب ابن خفاجة في الحياة إبّان صباه، فهو يستخدم أسلوب القصر، ليدل على أنَّ هذه هي الحياة، وما عداها ليست حياة، وإنْ أثبتت له الأيام عكس ذلك، فأقلع عن الشراب، فالعيش عنده خمر حمراء، يسقيها غلام أحور العينين في ظلال الطبيعة الخلابة، حيث يختلط حباب الكأس بِنَوْرِ الدوح فلا يستطيع التمييز بينهما، فيشبه الدوح بالكأس المزبدة ويشبه الكأس بالدوح المزهر، وهي صورة مفعمة بالحيوية والحركة، واللون، النابعة من البيئة الأندلسية.

ويصف ابن سهل الأندلسي ساقي الخمرة فيصف طعم الخمرة ولونها وأثرها في شاربها بقوله:-

خُذْها فَصُبحُ الظَّلامِ قَد نَصَلَا وذيْلُهُ بالسَّنَا قَدِ اشْتَعلا

وأُقحوانُ الرُبُّى بَدا سَحَراً وأُقحُوانُ النَّجومِ قَدْ ذَبُلا

فَهَاتِها واسْقِني براحتِهِ وَطَاوِعِ اللهوَ و اعْصِ مَن عذْلا [20]

ومَن تمام جمال المجلس جمال الساقي والمغني، حيث أختار الشعراء لوصفهم أجمل الأوصاف (القمر) مثل قول الوزير أبي الفضل بن حسداي. [21]

كأنَّما الرَّاحُ والرّاحاتُ تَحمِلُها بدورُ ثمَّ وأَيْدي الشُّرب هالات. [22]

ولقد عُرف الأندلسيون بعامة، وشعراؤُهم بخاصة، بِرقة الطِباع، وأُغرموا بالغزل واستعانوا عليه بالموسقى والرقص والغناء، واشتهر كثيرٌ منهم بالخلاعة والمجون، وتسربت آيات البذخ وحبّ اللهو والغناء من قصور الحكام ومجالس السادة إلى عامة الشعب، حتَّى كانتْ الأندلس في ذلك الحين أشبه بقيثارة ترسل ألحانها هنا وهناك، في القصور الخاصة والحدائق العامة[23]، ومن ذلك وصف ابن خفاجة مغنياً حسن الصوت والصورة، حتّى وصل به إلى ذروة

الجمال في الجانبين، فقرن جمال صورته بجمال سيدنا يوسف وصوته بمزامير داود (عليهما السلام)، فقال:

أَمْسَى يُقِـرُّ لِحُسْـنِهِ بَـدْرُ الـدُّجَى وَغَـــدَا يَـــذُوبُ لِلَحْنِـــهِ الْجُلْمُـــودُ

فَـــإِذَا بَـــدَا فَكَأَنَّمَـــا هُـــوَ يُوسُـــفٌ وَإِذَا شَـــــــدَا فَكَأَنَّـــــــهُ دَاوُدُ[24]

فالبيت الأول كناية عن بلوغ الغاية في حسن الصورة والصوت، حتَّى ليعترف بحسنه بدر الدجى، ويذوب الصخر من ألحانه، وفي البيت الثاني يشبهه بسيدنا يوسف عليه السلام في الحسن، وسيدنا داوود عليه السلام بحلاوة الصوت، وهو هنا متأثر ببيئته الثقافية، ومعارفه من التراث الديني، وتصوير القرآن الكريم لهذين النبيين عليهما السلام، وهذا ممّا اقتبسه ابن خفاجة من القرآن الكريم.

أما النُّدماء فهم ممّن يؤنسون الإنسان ويشاركونه لحظة فرحه ولهوه التي يستمتع بها على نغمات العُود ورنّات الكؤوس، وإذا ما غاب عنه أنيسه أو نديمه يبقى وحيداً بائساً حزيناً يرثي الليالي التي كان ينعم بها بصحبتهم.[25]

أمّا نديم ابن خفاجة فهو نديم صدق، بات يصطلي ناراً تستعر من القدح المملوءة بالخمر، فصوره في قوله:

لِلهِ نَدْمَانُ صِـدْقٍ بَـاتَ مُصْـطلياً نَـــاراً مِـــنَ الْقَـــدَحِ الْمَـــلآنِ يَسْـــتَعِرُ[26]

فهو يستعير النار للخمر في لونها وأثرها حيث يستدفئ بها شاربوها.

ويقول أيضاً:

حَـــي بَهَـــا وَنَسِـــيمُهَا كَنَسِـــيمِه فَشَـــــرِبْتُهَا مِـــــنْ كَفِّـــــهِ فِـــــي وُدِّهِ

مُنْسَـــاغَةً فَكَأَنَّهَـــا مِـــنْ رِيقِـــهِ مُحْمَـــرَّةً، فَكَأَنَّهَـــا مِـــنْ خَـــدِّهِ[27]

فقد شبه نديمه بخمر عبقة الرائحة كنسيم نديمه، فشربها في وده، وهي خمرة سائغة تشبه ريقه، محمرَّة تشبه خدّه.

ومن ذلك وصف أبي البحر بن عبد الصمد[28] للنديم حين يصفه بأَنَّه جميل الطلعة كالبدر لين القوام كقضيب البان ومنه قوله:

ووجوه مثل البدور تتلالا وقدُد وكأنَّها قضبُ بانِ. [29]

ولو تتبعنا شعراء الأندلس في مجالس أنسهم مع ندمائهم لطال بنا المقام، فهي ظاهرةُ منتشرة في أغراض شعرهم المختلفة: كالغزل والحنين، علاوة على الوصف الذي عبر عن جزء كبيرٍ منها، ولا عجب في ذلك، فقد شغل الخمر حيزاً غير قليل في فنون الشعر الأندلسي ؛ لأنَّ الأندلس بطبيعتها الساحرة وجوها الصافي الجميل، وخيراتها الكثيرة، قد شاعت فيها مجالس الأنس واللهو والشراب... إضافة إلى ما عُرف عن ولاة الأمور في الأندلس من تسامح مع الأدباء والشعراء الذين كانوا يعكفون على الشراب، ويتناولون ذكر الخمر في أشعارهم[30].

ونرى ابن خفاجة يصور الأحدب الذي كان يسقيه الخمر، فيقول:

وَخَمْرَةٍ تُضْرَمُ مِنْ جَمْرَةٍ يَصْلَى بِهَا أَسْوَدُ مُحْدَوْدِبُ

أُدْمِجَ فِي أَكْتَافِهِ عُنْقُهُ فَغَارَ رَأْسٌ وَانْحَنَى مَنْكِبُ

وَافْتَرَ عَنْ ضَوْءِ هِلَالِ بَدَا مَطْلَعُهُ مِنْ وَجْهِهِ مَغْرِبُ

وَاعْتَلَقَتْ فَحْمَةُ أَطْرَافِهِ شَرارَةً مِنْ كَأْسِهِ تُلْهَبُ

فَجَاءَنَا يَلْبَسُ مِنْ جِلْدِهِ ثَوْبَ حِدَادٍ كُمُّهُ مُذْهَبُ[31]

فهو في الأبيات السابقة يصور الأحدب، بأنَّه أسود اللون يصطلي بنار الخمر التي تشبه الجمر، وقد أدمج عنقه في أكتافة، فانحنى كتفاه، وغاص فيهما رأسه، وثغره يشبه الهلال الذي يطلع من المغرب ليلاً، ثُمَّ يشبه كأس الخمر في يده بالشرارة الملتهبة من قطعة الفحم السوداء،

وجلده الأسود يشبه ثوب حداد مذهب الكم، ثُمَّ يصوره والكأس في كفه بقطع من الليل يتألف فيه كوكب، وهو هنا متأثر بأسلوب القرآن الكريم، في قوله تعالى:﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾[32]، وقد أبدع الشاعر في تصوير البيئة التي تحيط به بعين بصيرة بكل ما يجري حولها.

وهو يلم في هذه القطعة بتصوير الخمر والكأس والساقي ومجلس الأنس، ولقد غشـــيت الخمر هذه المجالس، فكانت جزءاً من حياة المجتمع، وانتقلت من الحانات إلى المنازل، حيــث يجتمع الإخوان والسمار حولها مع رفع الكلفة واطراح الوقار، وكثيراً ما تتجاوز هذه المجـــالس مطالب الشهوة والجسد، فتصير ميداناً للمطارحات الأدبية والنظــرات النقديـــة، والمنـــاظرات العلمية، حتَّى أصبح شعر الغزل والخمر والوصف مقطوعات قصيرة تسجل ملاحظات عابرة أو أفكاراً محددة الأبعاد، وصار هذا اللون من الشعر مظهراً للترف الثقافي والــدعابات الأدبيـــة، يتلهى بها الشعراء، ويتباهون بالإجادة فيه، حتَّى ولو لم يكن وراء ذلك دوافع نفسية، أو غريزة ملحة، وقد كان ما ينشدونه من أشعار في هذه المجالس، أو ما يعده الشعراء لأجلّها – غالبـــاً – لخدمة الغناء والترفيه عن العامة والخاصة[33].

أمَّا ابن الزقاق فإنَّه في وصفه للغلمان قد اتكأ على عناصر الطبيعة ومشاهدها والفاظها متأثرا ببيئته الأندلس الجميلة ومن أروع ما نظم في غلام جرح في خدِّه.

وأحْوى رَمَي عَـنْ قِسِـيّ الْحُـورِ ... ســــــهَاماً يَفُــــــوّقُهُنَّ النّظــــــرُ
يَقُولــــــونَ وَجْنَتـــــهُ قُسِّــــمَتْ ... فَرسْــــمُ مَحاَسِـــــنهُ قَــــدْ دُثِــــر.
وَماشَـــــقَّ وَجْنَتــــهُ عَابِثــــا ... ولَكِنهَـــــــا أيـــــــةٌ للْبَشَــــــر
خَلاَّهـــا لَنـــا الله كَيْفَمـــا نَـــرَى ... بهَا كَيْــفَ كَــانَ انْشِــقَاقُ القْمَــرِ. [34]

ويصف ابن خفاجة السابح وهو يخوض في النهر بالشهاب الذي يشق السماء، فيقول:

وَلَرُبَّ غَضٍّ الْجِسْمِ مَدَّ يَخُوضُهُ سَبْحاً كَمَا شَقَّ السَّمَاءَ شِهَابُ[35]

وقال في وصفه الأسود يسبح:

وَأَسْوَدٍ عَنَّ لَنَا سَابِحٍ فِي لَجَّةٍ تَطْفَحُ بَيْضَاءِ

وَإِنَّمَا جَالَ بِهَا نَاظِرٌ فِي مُقْلَةٍ تَنْظُرُ زَرْقَاءَ[36]

فهو يصور الأسود وهو يسبح في النهر بناظر العين وهو سوادها الأصغر، الذي فيه إنسان العين شبه الأسود، واستعار المقلة الزرقاء للون مياه البحر، مماً يعكس صورة البيئة الحضارية الراقية التي تنتشر فيها المسابح ومواطن التسلية والمتعة.

ولقد أُولع شعراء الأندلس بالعذاروصرفوا عناية بالغة في وصفهم للعذار وجاء ذلك الوصف ممتزجاً بعناصر البيئة الأندلسية في أكثر من مقطوعة وفي ذلك قال أبو ربيع سليمان الكيلاعي.

قَالُوا التحَى وَاشْتَكَى عَينْيهِ قُلْتُ لَهُمْ نَعَمُ صَدّقتُهُمْ وَهلْ ذَاكَ مِنْ عَارِ

بنفسجُ عِيض مِنْ وَرْدٍ، وَنَرْجِسهُ تَحولَتْ وَرْدَة زُينتْ بِأَشْفَارِ

مَامرَّ مِنُ حُسْنِهِ شَئُ بِلَاعِوَضٍ حُسْنٌ بِحُسْنِ وَأَزْهَارُ بِأَزْهَارِ [37]

ووصف ابن خفاجة حال العذار والخال حينما صورهما في غرض الدعابة والغزل بقوله:

أَلَمَّ يُسَقِّنِي سُلاَفَةَ رِيقَهِ وَطَوْراً يُحَيِّينِي بِآسِ عِذَارِ

فَنِلْتُ مُرَادَ النَّفْسِ مِنْ أَقْحُوانَةٍ شَمَمْتُ عليها نَفْحَةً لِعَرَارِ

وَوَجْهٍ تَخَالُ الْخَالَ فِي صَحْنِ خدِّهِ فُتَاتَة مِسْكٍ فوْقَ جَذْوَةِ نَارِ[38]

فقد ألمَّ به محبوبه يسقيه مرّة إثر مرَّة من خمرة ريقه، ويحييه بعذاره الذي يشبه زهـــرة الآس، فنال مراده من ثغره الذي يشبه الأقحوانة، عليها نفحة العرار، ويتأمل محاســن وجهــه، فيرى في خده إحمراراً كجذوة النار، ويرى الخال فيه يشبه فتاتة المسك، وهو يستمد عناصـــر صورته هنا من البيئة والطبيعة كالخمر والآس والأقحوان، والعرار، والمسك، وجذوة النار.

وقد تميَّز الشعراء الأندلسيون في ذلك عند وصف الأزهار والرياض، ولم يقف الأمـــر عند هذا الحد من الوصف للأزهار والتشبيه بها، " بل افتنوا حتّى أقاموا مناظرات بـــين ألـــوان منها، وكأنهم بذلك يتجاوزون مرحلة النظرة العاطفية إلى مرحلة التأملات الفكرية"[39].

ويظهر أثر البيئة الأندلسية المتحظرة واضحا في وصف الشاعر لطيف محبوبته حيـــث وصف ابن حمديس رحيل الطيف مع شروق الشمس بقوله: - [40]

خَياليُـــكِ للأجْفَـــانِ مثْلـــهُ الفكـــرُ   فَعَيْنِي مَـــلأى بِـــالْهَوَاى وَيَـــدي صِـــفْرُ
سَرَى وَالدُّجَى الْغَرَبِيبُ يُخْفِي مَكانَـــهُ   فَـــنمَّ عَلَيـــهِ مِـــنْ تَضَـــوّعِها نَشْـــرُ

فالشمس نسرٌ محلق في كبد السماء والليل مات ليولد الفجر مبشرا بميلاد يوم جديد ومع ولادته يتجدد الحزن في قلب الشاعر برحيل طيف المحبوبه التى يصفُ رحيلها وما خلْفه فـــي قَلبه من وجدِ وحَصْره

ووصف لسان الدين بن الخطيب ليلة من الليلى التي زاره فيها طيف محبوبته فقد كـــان يساهر نجوم السماء ويرنو بعينه إلى الأفق البعيد، والليل مهزومٌ أمام أول جيوش الصباح، وفي ذلك الوقت أقبل طيف المحبوبة يبحث عن الشاعر فقال:

وَأَسْـــوَدٍ عَـــنَّ لَنَـــا سَـــابِحٍ   فِـــي لَجَّـــةٍ تَطْفَـــحُ بَيْضَـــاءِ
وَإِنَّمَـــا جَـــالَ بِهَـــا نَـــاظِرٌ   فِـــي مُقْلَـــةٍ تَنْظُـــرُ زَرْقَـــاءَ[36]

زَارتْ وَنَجَمْ الدّجَى يَشْكُو منْ الأرق وَالزُّهــرُ سَــابِحةُ فــي لُجــهِ الأفُــق
وَاللّيلُ مِنْ رَوْعةِ الإصبْاحِ في دَهْشٍ وَقَدْ شــابَ مَفْرَقُــهُ مِــنْ شِــدّةِ الفَــرَق

ويطهر التأثر بالبيئة الأندلسية عنصراً بارزاً في مقدمة وصف الطيف لدى أغلب شعراء الأندلس. (41)

ومن ذلك قول ابن خفاجة وهو يصف الطيف في مقطوعة غزلية:

يَا حَبَّذَا وَالطَّيْــفُ ضَــيْفٌ طَــارِقٌ طَيْــفٌ عَلَــى شَــحَطٍ أَجَــدَّ مَــزَارَا
تَلْوِي الشَّــمُولُ بِــهِ قَضِــيباً رُبَّمَــا عَــاطَى بِسوسَــانٍ هُنَــاكَ عَــرَارَا
فَلَثَمْــتُ فِيمَــا قَــدْ لَثَمْــتُ عَلاَقَــةً خَــداً يَسِــيلُ مَــعَ الْعُقَــارِ عُقَــارَا
مَا إنْ دَرَيْــتُ وَقَــدْ نَعِمْــتُ بِلثْمِــهِ مَــاذَا رَأَيْــتُ أَجَنَّــةً أَمْ نَــارَا(42)

فقد نزل الطيف ضيفاً عليه، وطرقه ليلا وهو يرحب به ؛ لأنَّه زاره على بعد، ثُمَّ يجسد الطيف وقد تلاعبت به الخمر في صورة قضيب يتمايل، فضل يلثمه حباً فيه، فلثم منه فيما لــثم خداً يشبه الخمر، ويظل ينعم بلثمه، ولا يدري – من ولهه – أيرى جنة أم ناراً.

أمَّا الأعمى التطيلى فقد وصف طيف محبوبته وشبه نظراتها وانكسار جفونها بــالبرق الذى يلمع ويختفى فكانت صورة طريفةً رسمتها مخيلة شاعر أعمى.

حيث قال:

غَمْزُاَ عُيُــونٍ وانْكِسَــارِ حَوَاجــبِ أَم الْبرْقُ في جُــنحِ مِــنْ اللّيــلِ دَائــبِ
سَرَى وَسَرَى طَيْفُ الْخَيالِ كِلاهُمَــا يَــودُّ لَــو أنَّ اللَّيْــلَ ضَــرْبةُ لاَزبِ(43)

ونلاحظ من خلال استعراض بعض شعراء الأندلس لهذه الصورة الوصفية أنهمَّ عشقوا الطبيعة، وتفاعلوا معها، واتخذو منها سكناً يأوون إليه، فخلطوها بمشاعرهم، ومزجوها بروحهم، وشخوصهم، فانعكست عندهم في لوحات فنية خالدة.

وقد أجادوا في وصفهم لكثير من الظواهر الاجتماعية، التي ذكرنا بعض منها على سبيل المثال لاحصر وتأثرها بالبيئة الأندلسية جامعين بين الصياغة والتشـكيل، بتصـيفة العبـارة، وتركيز التجربة، وبين وصفهم للموقف وترجمة الانفعال، محققين بهذا الوصف الفائدة والمتعة.

ومن هنا يكون الحديث عن البيئة الاجتماعية، أو بعض مظاهرها في أشـعارهم عنـد شعراء الأندلس ينشد وصف البيئة اصلا وهذا دليل، على مقدار أهمية البيئة الأندلسية، ومنزلتها في نفس الشاعر، فضلاً عن أنَّ المجتمع الأندلسي كان قد بدأ مع الزمن يتجه وجهته الخاصة به، بعد أنْ تفاعلت فيه المؤثرات العنصرية المختلفة، وامتزجت فيـه الثقافـات وسـائر العوامـل الحضارية في تلك البيئة الطبيعة النائية والمميّزة.

هوامش البحث:

1- القران الكريم، مصحف الجماهيرية، رواية قالون عن نافع المدني.

2- ينظر: ميشال عاصى، الشعروالبيئة في االأندلس، المكتب التجاري للطباعة، بيروت 1970 ف, ص 12.

3- ينظر: سعد أسماعيل شلبي – البيئة الأندلسة وأثرها في الشعر، دار النهضة، مصر، 1978 ف. ص 55. وليفي بروفسال، الأسلام في المغرب والأندلس، ترجمة محمد عبد العزيـز، دار النهضة مصر، 1957ف. ص 352.

4- ينظر: شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي. دار المعارف، مصر 1977ف. ص 441.

5- ينظر: شوقي ضيف، فصول في الشعر ونقده، دار المعارف، القاهرة، 1977 ف, ص 441.

6- ينظر: عمر الدسوقي، دراسات أدبية، مكتبة النهضة، مصر، ص44.

7- ينظر: محمد الريسوني, الشعر النسيوي في االأندلس، مكتبة الحيـــاة ، بيـــروت 1978 ف, ص74.

8- ينظر: حسن أحمد النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، دار الجيل – بيروت ط 1 -1992 ف – ص 243.

9- ينظر: ديوان ابن زيدون, تحقيق، أكرم البســـتاني، دار صـــادرت بيـــروت, 1985ف, ص 219.

10- ينظر: ديوان ابن خفاجة، تحقيق، السيد مصطفي غازي، منشاة المعـــارف، الاســـكندرية، ط2، 1979، ص245.

11- ينظر: سعد اسماعيل شلبي، البيئة الأندلسية وأثرها في الشـــعر, دار النهضـــة، مصـــر، 1978، ص124.

12- ينظر: ديوان ابن خفاجة، ص350.

13- ينظر: أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، محمد محي الدين عبدالحميد ط – القاهرة. 1944 ف, 4/2، ص247.

14- ينظر: ديوان ابن خفاجة، ص191.

15- ينظر: ديوان ابن خفاجة، ص374.

16- ينظر: ديوان ابن خفاجة، ص70.

17- ينظر: ديوان ابن خفاجة ، ص70.

18- ينظر: الفتح بن خاقان، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ط، القاهرة، 1983ف، ص67.

19- ينظر: حسن احمد النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية فـــي الشـــعر الأنـــدلس، دار الجيل، بيروت، ط 1992 ف, ص 305.

20- ينظر: ديوان ابن خفاجة، ص135.

21- ينظر: ابن سهل أبو إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي، ديوان ابن ســـهل الإســـرائيلي، جمع، أحمد حسين القرني، المكتبة العربية، مصر، ط1، 1926ف، ص126.

22- ينظر: عمر بن حسن بن دحية الكلبي، المطرب في أشعار أهل المغرب، تحقيــق – د – مصطفي عوض الكريم، ط الخرطوم، 1945 ف.

23 – ينظر: الفتح ابن خاقان، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، تحقيق محمد العتــابي، الــدار التونسية للنشر, 1966ف، ص209.

24 – ينظر: أحمد أمين، ظهر الإسلام، القاهرة، 1953 ف، ج – 2، ص33، وينظر: جورجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، ترجمة، حسين مؤنس، دار الهلال، د، ت، ج 5، ص159، 161.

25- ينظر: ديوان ابن خفاجة، ص371.

26- ينظر: جمال الدين بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1997ف.

27- ينظر: ديوان ابن خفاجة، ص372.

28- ينظر: ديوان ابن خفاجة، ص361.

29 – ينظر، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيــق ، إحسان عباس – ط: 1، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس.

2/3:ص 309.

30- ينظر: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة تحقيق احسان عباس، ط 2 ، الدار العربية للكتاب، سنة 1997ف : 3/2:ص 811.

31- ينظر: منشاوي محروس الجالي، أبو نواس الأندلس – دار الفكر العربي، القاهرة، 1986 ف, ص 82.

32- ينظر: ديوان ابن خفاجة، ص375.

33- ينظر: سورة يونس، الاية 27.

34- ينظر: سعد اسماعيل شلبي، البيئة الأندلسية واثرها في الشعر، دار النهضة، مصر، 1978 ف، ص430.

35- ينظر: ابن الزقاق البلنسي – تحقيق، عفيفة الديواني – دار الثقافة، بيروت 1965 ف. ص285، 179.

36- ينظر: ديوان ابن خفاجة، ص337.

37- ينظر: ديوان ابن خفاجة، ص191.

38- ينظر: ابن الأبار القضاعي، المقتضب من كتاب تحفة القادم تحقيق، إبراهيم الابياري، ط، الاميرية 1975 ف, ص 140.

39- ينظر: ديوان ابن خفاجة، ص110.

40- ينظر: علي الجندي، أدب الربيع بين الورد والنرجس، مطبعة جامعة القاهرة -1961 ف، ص21.

41- ينظر: عبد الجبار ابن حمديس، الديوان، صححه وقدم له، إحسان عباس, دار صادر بيروت 1960 ف، 240.

42- ينظر: لسان الدين الخطيب، الصيب والجهام والماضي والكهام، تحقيق محمد الشريف قاهر، الجزائر، 1973ف, ص 634.

43- ينظر: ديوان ابن خفاجة، ص61.

44- ينظر: عبدالله الاعمى التطيلي، الديوان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت,1963ف، ص:40.